تركيا

تماثى مدنية القرن العشرين

تعد تركيا التى احياها مصطفى كمال من العدم منذ تسع سنوات مملكة حديثة لاصلة لها بالامبراطورية العثمانية المندثرة . ولو درسنا حالة ما قبل الحرب تستلفت انظارنا ثلاث حقائق جذابة اولها ان تركية اليوم امة منتصرة محت ما كان مقيدا فى سجل تاريخها قبل عام ١٩١٩ . فقد اراحت ذاتها من ملحقاتها الامبراطورية السابقة التى امتدت الى الفرات شرقا والى ابواب عدن جنوبا . وقد وفقت تركيا باصدار قرارها القاضى بالتخلى عن تاسكم الملحقات المأهولة بالعرب . من هنا تبدأ خطوة تركية التطورية الثانية . فتركية كمال الحديثة اصبحت ذات وحدة متجانسة . وبعد ان استرد اليونان المقاطعات التى طالما حلموا بها وواجهوا البلغار واليوغوسلافيين فى موضوع ايجاد منفذ لكل منهما على البحر ، آمنت تركيا شر جيرانها . وقد نست تركيا تماما مكة والمدينة والقدس ودمشق واخذت تغذى ذكرى دفاعها المجيد فى موقعة غاليبولى . وقيدت فى سجل تاريخها الحديث محاربين احدهما طردها لليونان من ازمير والثانى طردها لجيوش الحلفاء من الاستانة . اما الحقيقة الثالثة فنفسية تماما فالذين نهضوا بتركيا قد بذلوا جهدا عظيما لتحريرها من الروح العثمانية وقد تمكن مصطفى كمال من تشخيص داء « رجل اوروبا العليل » بقوله انه مصاب بمرض عصبي مزمن ادى الى ادعاء اوروبا بانها حامية غير المسلمين من ظلامهم العلم العثمانى . لذلك كان اول ماصنعه ذلك الطبيب الوطنى الماهر هو نقل المصاب من الاستانه الى انقره . حيثما يتمكن من معالجته بلا تشويش خارجي . ثم مر القرار على وجوب اجراء عملية بتر ، لان العلاج لايفيد فى مثل هذه الاحوال ، فالغيت الامتيازات وازيلت اسباب العدوى الباطنية

بازالة الاقلية الغير مسلمة . هذه الاقلية المكونة من ارمن ويهود واغريق ، اولئك الذين لم تكن لهم لغة فى حين كانوا يلوكون كل لغة وكانوا بلا وطن في حين كانو ينتسبون الى كل وطن يتزوجون من أبنائه لدرجة انهم كانوا يقولون عن وطن كل من يتكلمون معه « وطننا » ولم تكن لهم عاصمة ولم يوالوا حكومة ، فى حين انهم كانوا رعايا لكل الحكومات. فهذه الأقليات التى كانت تدفعها الاطماع السياسية والدينية . فقد بعدت الآن بطريقة مثلي تخالف طريقة المذابح والاضطهادات التى كانت متبعة قديما . حقيقة كانت هذه الأقلية نشطة فى اعمال الوساطتين الاقتصاديه والتجارية ، ولكنها كانت غير مرغوبه. ولذلك طردت وتبع ذلك سقوط الاجانب من المركز الممتاز الذي ادعوه طويلا لذواتهم بحكم الامتيازات

بدأ المصلحون بعد ذلك بالاهتمام الى داخلية المنزل فارتأوا ان نظم الامبراطورية العتيقة لم تعد صالحة لهذا العصر. لذلك عولوا على اشادة وطن جديد على اساس وطنى بعيد عن تقاليد الخلافة والسلطنة وما علق بهما من النفوذ الدينى . فالتقاليد الحميدية كانت ترمى الى خدمة الخليفة غير مهتمة بالامة ونجاحها . وقد اصاب الغازى فى استنتاجه بان التركي محافظ بطبيعته فابقاء اى اثر للسلطنة او للخلافة من بيت آل عثمان معناه ايجاد نظام داخل نظام ولذلك قضى على النظام القديم سواءاً كان حميديا او انوريا (حزب تركيا الفتاة)

ويمكن القول بان الثورة التركية ليست الا صورة للثورة الفرنسية . فقد جمع مصطفي كمال فى شخصه شخصيات ميرابو ودوموريى وروبسبير ونابوليون (القنصلية الأولى) وكانت ازمير التركية بمثابة جيلب الفرنسية . وقد محى حكم الارهاب الارستقراطية التركية واخيرا ايضا خضعت القسطنطينية على اثر الانتصار في ساحة مودانيا . ولو ان مصطفي كمال قد بلغ تلك الذروة من الشهرة فما زال الثالوث المكون منه ومن عصمت رئيس وزرائه ورئيس الحزب الوحيد وفوزى قائد جيشه وكبير بوليسه متماسكا يشاطر

عضواه الاخيران الغازى فى شهرته ويعمل الجميع معا لرفع شان الأمة التركية وكلهم قد خبر الحرب وعرك السياسة وله ماضى مشرف وبيد نظيفة ومن حسن الحظ انهم ظلوا على ما كانوا عليه ولم يتركوا للوقيعة والدس مجالا بينهم ، فخاض كلا منهم الشدائد فشتتوا وشنقوا ولكنهم تمكنوا اخيرا من الحكم المنظم بالرغم من انه حكم ديكتاتورى . فهم الآن انموذج الوطنية الحديثة وقلوبهم ملأى بحب وطنهم واحترام مواطنيهم .

ووجه هذا الثالوث التفاتة صوب الحالة الاجتماعيه واوجد مبدأ تركيا الجديد « تركيا للاتراك والاتراك النشطين دون غيرهم لتركيا » أما التركي القديم فقد كان كسولا لدرجة أنه أسلم قياد نفسه للاقلية النشطة فتحكمت فى أموره الاقتصادية والادارية . والسبب فى ذلك هو سوء نظام التعليم والخرافات الدينية التى وقفت عائقاً فى سبيل متابعة التركي لروح العصر الراقية والدافعة له للتنازع مع من هم أقل استعداداً منه . وأما التربية الاجتماعية التركية فكانت طريفة . فقد كانوا يدربون التركي على العزة الوطنية والشخصية وكانوا يدفعونه بلا وعى لتقليد الغرب

وقد أفلحت سياسة الغازى فى الاقلال من أثر الضعف الوطنى وتأثرت العقلية التركية بطريقة غير مباشرة من المجهود الذى بذله وكان لزاما ، لاجل بناء تاريخ جديد ، قطع صلة الحاضر والمستقبل تماماً بالماضى المخزى . هذا هو السر الذى تحويه كل ألغاز السياسة المشيدة الحالية التى ترمى الى اصلاح مجرى الحياة التركي

وأول تجديد بدىء به هو استبدال الطربوش بالقبعة . وترك الحرية لمن يريدن السفور من النساء . وكلنا يتذكر كيف احتفلت تركيا باسترداد الاستانة وكان من لزوميات ذلك الاحتفال الاحتفاظ بالطربوش للدلالة على تمكن التركي من قهر الغربى . ولكن بعد ذلك بعامين انتهز الغازى فرصة امضاء معاهدة الصلح ، فحرم لبس الطربوش ولم تكن هناك فرصة لاستجلاب كل ما يحتاج اليه الاتراك من القبعات . فكم كان غريباً أن ترى الناس يلبسون كل ما تقع أيديهم عليه من أنواع القبعات

أما التحجب فقد كان على العكس مما سبق. فبالرغم من أن ٩٠ ٪ من نساء المدن الغربية سرن سافرات . فان أغلبية نساء المدن الاخرى التى كانت متعلقا بالتقاليد الدينية لا يزلن مخفيات لوجوههن . ولم يكن اختفاء الطربوش وانتشار السفور إلا مقدمة لانواع أخرى من التجديد فبعد أن ربض الغازي عامين آخرين ظهر دفعة أخرى على المرسح ليعمل بعزم لتنفيذ سياسته الجديدة . صرح اسماعيل باشا الخديوى بان مصر لم تعد جزأ من افريقيا ولكنها جزء من اوروبا وهذا منذ خمسين سنة . وكان يرمى الى قطع علاقات امته بالنظام الشرقى ولكنه اتبع طرقا أضرت به وبامته معا

وقد وجدت هذه الرغبة عند كمال ولكنه لم يغرق بلاده بوفود الاوروبيين ، وأغلبهم من المسترزقة كما فعل اسماعيل ، ولكنه حاول الوصول الى نفس الغاية بواسطة الاتراك انفسهم رغبة فى تسيطر ابناء وطنه على مواردهم دون الغربيين

و يجب ان لا ننس ما سبق لنا قوله من ان الاسلام تحت نظام الخلافة قد اوجد لنفسه نفوذا سياسيا واجتماعيا فى تركيا . وظل هذا النظام سائدا من مهد العصر القديم الى لحده . فقد كان قسيس القرية « الخوجه » — العالم — ممثلا سلطة الخليفة الروحية . وكان مستقلا تمام الاستقلال عن الحكومة وفي اغلب الاحيان كان معاديا لها وكان شيخ الاسلام بحكم مركزه وزيرا للدولة وكان يسيطر على مقدار غير قليل من ثروة الدولة — الاوقاف — ارصدها المؤمنون لاعمال البر والتعليم فهذه الاموال كان يساء استعمالها فى العصر الماضى باستخدامها فى المصالح السياسية . خصوصا وانه لم تكن للحكومة اى سيطرة عليها . لذلك كانت آمال الفلاح التركي تقف عند رغبته فى اختصاص ذاته بجزء منها ولم يكن ذلك ميسورا له الا اذا اكتسب ثقة « الخوجة » عن طريق الطاعة . وأسوأ أثر لنظام الاوقاف كان ابعاد التركي عن التعليم واحاطته بالخزعبلات والاوهام ، لذلك ضرب الغازى هذا النظام ضربة قاضية فازال وظيفة شيخ الاسلام ووضع الاوقاف تحت

على السيطرة الحكومية . ومن ثم اخذت الحكومة التركية على عاتقها القيام بنشر المعارف الامر الذى يخلد لمصطفى كمال بحق لقب « مربى النشء »

وبالرغم من اطاحة الغازي بالخليفة وشيخ الاسلام لم يرَ الفرصة مناسبة لمشاكسة الاسلام بصفته دين الدولة . فابقى فى صلب الدستور ما يفيد انه كذلك ولكن فى اوائل هذا العام رجع عن تردده وبجرة قلم طلق الدين ثلاثا لاسباب سياسية فاصبح الاسلام بذلك لا اكثر من دين كبقية الاديان وتدل الاخبار الاخيرة على انهم فكروا في تأثيث المساجد بمقاعد وأدخلوا الموسيقى فيها وبذلك لا يضطر المسلم المتعبد الى خلع حذائيه اذا اراد الصلاة وهذه خطوة جريئة يعرفها كل الذين خبروا الاسلام . ويظهر ان الناس قد أقبلوا على هذا الجديد كما اقبلوا من قبل على كل جديد أوصى به الغازى

واتبعوا نفس الطريقة في نظام التربية والادارة . فاللغة التركية ليست اكثر من خليط من اللغتين العربية والفارسية وهى لغة غنية فى الاعراب عن المعانى ولكن ينحصر ضعفها في عدم وجود صلة بينها وبين اللغات الاوروبية الامر الذى لا ييسر لها هضم تلكم اللغات فهى لذلك اصبحت عقبة فى سبيل التمدين المطلوب . فارتأوا ان يستبدلوا الحروف والارقام القديمة بالحروف والارقام الاوروبية وقدروا لنشر الاحرف والارقام الجديدة خمس سنوات . وقد اخذ الغازى على عاتقه نشر الدعوة بنفسه فهو لا يكتب الآن الا باحرف لاتينية . ولا يقرأ الا ما كتب بتلك الاحرف . وفوق ذلك اهتم بمسألة تدريس هذه الاحرف بنفسه ، فى سراى ضوله بغجسى التى كانت يوما ما مقرا لعبد الحميد ، لوزراء الدولة ولكبار موظفيها وهولا يبخل بساعات عديدة كل يوم من وقته لتعليم الناس مبادىء القراءة والكتابة وفقا للنظام الجديد . وقد انتشرت فصول للتعليم فى كافة انحاء الجمهورية

وقد أثمرت الحركة الكمالية التى تعمل لايجاد « اتراك نشطين لاجل تركيا » فانك ترى البهائم السافرات يعملن فى مصلحة التليفون وترى ساعة العمل دائرة على أتم نظام . بينما يختال رجال الجيش والبوليس فى ثيابهم المرتبة النظيفة

وهم مطمئنون على مرتباتهم التى تدفع لهم وقت الاستحقاق بالضبط . وترى الطرق تمهد ، ومواعيد السكك الحديدية فى غاية من الضبط . مثلها كمثل مواعيد الرقاصات . وفوق ذلك قد اصبحت القرة اليوم غير القرة ١٩١٩ اذ نفضت عنها غبار الماضى فازيلت من حولها المستنقعات المسببة للامراض فتركية الآن مثال للنظافة والنشاط تسير على طريق التقدم بقدم سريعة ثابتة

هنا يجب أن نشير الى الحالة الاقتصادية فالملاحظ أن تركيا قد دفعت ثمناً غالياً للتقدم الذى تسعى اليه وقد نتج ذلك عن طردها للاقلية الغير مسلمة التى كانت تقوم بعملية الوساطة بين المنتج التركي والمستهلك الاوروبى وبالعكس ومن الملاحظ أيضاً أن مقدرة التركي عاجزة عن مماشاة روح التجارة العصرية فنتج عن ذلك عجز المحصول التركى عن احتلال المكان اللائق به . الامر الذى سبب عسراً داخلياً . ولكن الظاهر أن الغازى قد انتبه لهذا الامر ولكن لم تثمر جهوده تماما حتى الآن من هذه الجهة فى حين أن التركي قد لبى دعوة الغازى من الوجهتين السياسية والاجتماعية . وبالاختصار فان تركيا قد أصبحت للاتراك ولكن لايزال الوطن التركى فى حاجة الى « التركي النشط الامثل »

ملخصة عن الانكليزية

الخرطوم

ط . هـ . حنين